

القضية الفلسطينية في كتابات مالك بن نبي

*The Palestinian cause in the writings of Malik bin Nabi*محمد عوالمية¹

مخبر الدراسات الدعوية والاتصالية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

aoualmia@gmail.com

تاريخ الوصول 2024/02/29 القبول 2024/03/18 النشر على الخط 2024/06/01

Received 29/02/2024 Accepted 18/03/2024 Published online 01/06/2024

المخلص:

في سياق التعريف بفكر مالك بن نبي وربطه بكبرى قضايا العالم الإسلام، يأتي هذا المقال لتسليط الضوء على جملة من الكتابات والنصوص المتناثرة في مؤلفات مالك بن نبي، تلك النصوص التي تبين تصوره للقضية الفلسطينية من حيث ماهيتها وأسلوب معالجتها وأسبابها ونتائجها.

يعتمد هذا المقال المنهج الاستقرائي في جمع مادته ويستفيد من مناهج أخرى في تأملها وتحليلها وربط بعضها ببعض. يعالج هذا المقال الإشكالية التالية:

كيف فهم مالك بن نبي المسألة الفلسطينية وكيف قرأ واقع المسلمين ومستقبلهم بناء عليها؟

الكلمات المفتاحية: القضية الفلسطينية، مالك بن نبي، اليهود، العالم الإسلامي.

Abstract :

In the context of introducing Malik Ben Nabi's thought and linking it to the major issues of the Islamic world, this article sheds light on a number of writings and texts scattered in Malik Ben Nabi's writings, those texts that show his conceptualization of the Palestinian issue in terms of its nature, method of addressing it, causes, and consequences.

This article adopts the inductive method in collecting its scientific material and makes use of other methods in reflecting, analyzing, and linking them together.

This article addresses the following question:

How did Malik Ben Nabi understand the Palestinian issue and how did he read the reality and future of Muslims based on it?

Keywords: Malek Bennabi, Palestine, jews, issue, Islamic world.

مقدمة:

بعد مرور 75 عاما على إعلان الدولة الصهيونية كيانا وارثا للاحتلال البريطاني، أيقظ طوفان الأقصى في نفس الإنسان المسلم اهتماما متصاعدا بما يحدث على أرض المعركة. وعندما أستعمل كلمة أيقظ فإنما أعني بعض ملامح الاستفاقة التي حدثت بعد التراجع الكبير في الالتفاف الإسلامي حول القضية الفلسطينية كمشكلة جوهرية تتعلق بوجودان المسلم ووجوده. لقد ظل العرب والمسلمون يرددون في كل أحاديثهم وكتاباتهم ما خلصته أن قضية فلسطين مركزية وأنها شأن ديني وديني وأنها ينبغي أن تظل حاضرة في حياة المسلمين تسمو على كل اختلافاتهم القطرية والمذهبية والطائفية. لكن المتتبع للإحداث الجارية يشهد تخليا واضحا عن القضية بحجة رغبة بعض القيادات الفلسطينية في الحلول السلمية المقترحة من الدول الكبرى أو بحجة رغبة بعض الدول العربية في التطبيع وإقامة علاقات مع إسرائيل لتأمين مصالحها إذ ليست كما يقول زعمائها أكثر فلسطينية من الفلسطينيين الباحثين عن السلام والعيش المشترك وفق حل الدولتين.

تختلف المشكلة الفلسطينية عن سائر قضايا المسلمين فهي تعنيهم جميعا بحكم ارتباطها بالقدس والمسجد الأقصى مسرى النبي صلى الله عليه وسلم، أولى القبلتين وثالث الحرمين. وتتميز بعمقها التاريخي إذ ليست المرة الأولى التي تحتل فيها فلسطين إنما لذلك الأمر سوابق حركت الأمة واستنهضتها وغيرت مجرى تاريخها، فوحدتها بعد تفرق وجمعت شملها بعد شتات وأعادت رسم غاياتها في مواجهة العامل الصليبي الذي تعد الصهيونية المعاصرة امتدادا طبيعيا له وإن اختلف الشكل والشعار.

ظلت مسألة فلسطين حاضرة في الإنتاج الفكري العربي عبر التاريخ فتناولها المؤرخون والشعراء والجغرافيون والمفكرون، كل من زاويته. وفي هذا المقال أحاول الحفر في كيفية تناول المفكر مالك بن نبي للمسألة الفلسطينية باعتباره مفكرا يتحرك ضمن منطق تكاملي حضاري أولا وباعتباره إنسانا عاصر النكبة الأولى وعاصر هزيمة جوان 1967 فتأثر بذلك وكتب عنه وفسر من خلاله بعض الظواهر السلبية والإيجابية في حياة المسلم المعاصر.

للقضية فلسطين حضور كبير في كتابات مالك بن نبي وبالأخص في الجزء الثاني من كتابه وجهة العالم الإسلامي الذي خصصه للمسألة اليهودية محاولا دراسة العدو والغوص في أعماق شخصيته لاستجلاء غوامضه حتى يتسنى لنا النظر إليه كما هو على الحقيقة لا كما نتصوره أو كما يصور نفسه أو وفق الصورة التي يظهرها الإعلام والكتابات المساندة له.

وكذلك كتاب بين الرشاد والته الذي تضمن جملة مقالات موجهة للرؤية البنائية للقضية الفلسطينية كتبت مواكبة لهزيمة 1967، كما تزخر مذكرات مالك بن نبي بكثير من اللفتات إلى قضية فلسطين والصهيونية والشخصية اليهودية. مشكلة البحث:

أسعى في هذا المقال إلى مقارنة الإشكالية التالية:

كيف فهم مالك بن نبي المسألة الفلسطينية وكيف قرأ واقع المسلمين ومستقبلهم بناء عليها؟

اعتمدت في هذا المقال المنهج الاستقرائي حيث تتبع بعض ما ورد في كتابات مالك بن نبي - عرضا أو قصدا عن قضية فلسطين وحاولت تفسير ذلك ضمن سياق النموذج الحضاري الذي يحكم تفسير مالك بن نبي للقضايا الخاصة والعامة.

النسق الحضاري:

إنه من نافلة القول التذكير بأن مالك بن نبي يصدر عن رؤية حضارية شمولية يفسر من خلالها الجزئيات بردها إلى الكليات والنواظم التي تحكمها وتؤطرها، وهو ما جعله يقرأ مشكلات الإنسان عموماً ضمن نسق كلي هو مشكلة الحضارة يقول في هذا السياق (إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته) (بن نبي، شروط النهضة، 1986، صفحة 19) فالتفكير خارج هذا النسق يوقعنا في المعالجة الجزئية للظواهر مهملين الوشائج التي تربط بينها فينشأ عن ذلك تفسير غير كاف للظاهرة المراد بحثها أو تناولها. فالقضية الفلسطينية بهذا المنظور هي تجل من تجليات الحضارة الغربية القائمة على المنطق الاستعماري الهادف إلى إزالة الآخر وجودياً. لذا فإن إيجاد كيان ملفق كهذا عده مالك بن نبي استمراراً للوجود الاستعماري بشكل جديد حيث وصف إسرائيل بقوله: (فدولة إسرائيل ليست في الواقع سوى رأس جسر أقيم بعناية في قلب العالم العربي، واحتله جيش مكون من أربع مئة ألف رجل مجهزين بوساطة القوى الغربية، ومتخفين بمهارة تحت لواء الصهيونية بالطريقة نفسها التي تستخدمها بعض شركات الملاحة، حين ترفع على سفنها أعلام دول أمريكا الوسطى، لأسباب مختلفة). (بن نبي، 2001، صفحة 69)

وإلى مثل هذا ذهب الدكتور عبد الوهاب المسيري رائد بحوث الصهيونية واليهودية حيث قال: (إن الاستعمار الصهيوني هو إفراز للتشكيل الاستعماري الغربي، ولكن إفرازات هذا التشكيل متنوعة، فهو استعمار إحلالي ليس له دينامية مستقلة عن الدولة العظمى التي تتبناه ولعل هاتين السمتين، إحلاليته وعمالته؛ هما السمتان الأساسيتان للاستعمار الاستيطاني الصهيوني) (المسيري، 2003، صفحة 35) هذه الأفكار تبين لنا بوضوح استثمار الفكر الصهيوني لما سماه عبد الوهاب المسيري بالدياجات اليهودية لكسب شرعية ما يحافظ بها على مكانته ويستطيع من خلالها تعبئة أكبر قدر ممكن من اليهود وإغرائهم بالهجرة إلى أرض الأجداد. وأما استمرار دولة إسرائيل والعجز عن تصفيته في مهدها فهو تعبير عن حالة تراجع الأمة الإسلامية وانكفائها على ذاتها الأمر الذي أطمع الآخرين فيها وشجعهم على انتهاك أقدس مقدساتها. ذلك التراجع الذي يبينه بن نبي على الأسباب الفكرية الشعورية قبل النظر إلى تكافؤ القوة ومنطق الأشياء دون الاستخفاف بهذه الأخيرة كما فعل قادة العرب في حرب 48.

مالك بن نبي المثقف المواطن:

إن المثقف الحقيقي هو الذي لا ينفصل عن مجتمعه، بل يعيش آلامه ويعمل على تحقيق آماله، إذ هو الأقدر على فهم الأشياء ووزنها بميزان علمي صارم يمكن من تصفيته من دجل السياسيين وتسطير العوام. ومالك بن نبي المثقف كان يدرك قضية فلسطين في عمقها الاستراتيجي فيصنفها ضمن المشكلات التي تعنيه بشكل مباشر باعتباره عربياً ومسلماً، بل يرفعها إلى مستوى الثورة الجزائرية، التي كانت إذ ذاك منتهى أمل لك الجزائريين في الانفكاك من قيود الاستعمار، يقول ابن نبي في هذا الشأن: (ثم أرى مشكلة أخرى قريبة من مشكلة الثورة الجزائرية وهي مشكلة فلسطين، فهي أيضاً تمس حياتي في الصميم بصفتي مواطناً عربياً وبصفتي مسلماً) (بن نبي، 1979، صفحة 126)

إنها تمس حياته ليس على مستوى التحليل والكتابة والخطاب فقط - بل على مستوى المعيشة والشعور.

وهو يدرك بعمق ما تمليه قداسة الأرض من واجب ثقيل على الإنسان العربي الذي عليه الاقتداء بأسلافه ممن حرروها واستشهدوا على أرضها فنجدته يقول (لقد بارك الله عز وجل هذه القطعة من التراب التي نسميها فلسطين، وجعلها مهداً نزلت فيه الأديان،

قبل الإسلام، وعلى العرب اقتداء بأسلافهم أولاً، ولأن أبطالهم يستشهدون اليوم على أرضها، أن يباركوها بما يسترجع وحدتهم) (بن نبي، 1978، صفحة 114)

قضية فلسطين قراءة في الأسباب والنتائج من منظور مالك بن نبي:

يتجه المنطق التبسيطي التجزيئي إلى عرض القضايا كحوادث منفصلة عن سياقها التاريخي ويتجه المنطق التركيبي التكاملي إلى البحث في أبعاد المشكلات بغية فهمها فهما صحيحا لضمان الاستجابة المناسبة لها. ينظر المسلمون إلى قضية فلسطين على أساس كونها احتلالاً

لأرض فلسطين المقدسة من قبل اليهود سنة 1948، ولا يأبهون بالبحث في طبيعة المحتل اليهودي وطبيعة العلاقات التي أقامها مع الدول الكبرى الممثلة للحضارة الغربية قبل وأثناء وبعد الاحتلال. ولا يلقون بالا لطبيعة صاحب الأرض الذي هو جزء من منظومة حضارية لا تزال تسيطر عليها القابلية للاستعمار؛ ولا تزال تفرخ فيها بعض مظاهرها البغيضة من أنانية وخيانة للمجموعة الكلية وقصر نظر للأمور وسطحية في تحديد حجم التحديات وضبط طرائق الاستجابة المناسبة لها. ولعل مالك بن نبي يشير إلى كثير من هذا حين يقول: (ولو أننا تتبعنا التطور العام للسياسة الإسلامية حتى قضية فلسطين؛ فلن نشعر - بكل أسف - بأنها تركز على مبادئ تامة التحديد، أو أصول واضحة، ولن نجد لها غايات واقعية تخضع لنظرية تهديدها سبلها، حتى تبلغ هدفها بطريقة علمية) (بن نبي، 1986، صفحة 100)

فقضية فلسطين أذن فصل قصير من فصول تاريخ هذه الأمة التي لم تتفطن بعد إلى دهاء الاستعمار وقدرته الخارقة على إدارة وتوجيه (الصراع الفكري) الذي يحول بمقتضاه هزائمه إلى انتصارات وفي الوقت ذاته يحول انتصارات الشعوب إلى انكسارات وهزائم قد تبذل أجيالاً في محاربة أسبابها والقضاء على بذورها في المهد؛ تفعل ذلك نيابة أمينة عن الاستعمار انسجاماً مع قوله تعالى (يخربون بيوتهم بأيديهم)².

لقد نجا ابن نبي من هذه الظاهرة المرضية بفعل منطقته التفسيري الذي أشرنا إليه فكتب في 1952 دراسة عن اليهود نشرت في 2012 تحت عنوان وجهة العالم الإسلامي المسألة اليهودية.

فإذا تأملنا هذه الدراسة أمكننا القول بسبقها لزمناها من جهة، فالإنسان المسلم لم يستفك بعد من آثار نكبة 1948. ولم يتجه بعد إلى البحث الجاد في أسبابها، فهو غير مؤهل لذلك حسب منطقته ومنطقه مثقفه. وأمكننا القول من جهة ثانية أن مالكا - رحمه الله - قد جعل الدراسة جزئاً ثانياً محددًا لوجهة العالم الإسلامي بمعنى أنه كان يعي مركزية المسألة اليهودية وعمق تأثيرها على واقع المسلمين ومستقبلهم.

وأمكننا القول أخيراً أن تأخير مالك بن نبي لزمنا نشر هذه الدراسة يكشف عن وعيه العميق بأنه لا ينبغي أن يخاطب جيل بما لا يفهم ولا يستوعب حتى لا ينعكس ذلك سلبيًا على إشعاع الفكرة وفعاليتها فكل حقيقة أوان، ولكل جيل قدرة ما على تفكيك رموز رسالة ما كما أشار إلى ذلك في بداية مذكراته.

² سورة الحشر، الآية 2

تلك المذكرات التي تتضمن كثيرا من الإشارات إلى اليهود، إلى حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الجزائر وفرنسا إبان النصف الأول من القرن العشرين وتضمن كذلك جملة من الملاحظات الدالة على وعي صاحبها ببدايات تبلور المشكلة اليهودية. (بن نبي، 1984، الصفحات 18-81-160-226-389)

لم ينشر مالك بن نبي دراسته للمسألة اليهودية كاملة، ولكنه كتب بعض شذرات في مختلف كتبه يحاول من خلالها أن يلفت نظر العقل المسلم إلى بعض الأسس التي يتعين عليه اعتمادها في تقييم الشخصية اليهودية من جانب، ويبين من جانب آخر بعض ما في قضية فلسطين من فضح لعيوب الإنسان العربي المسلم سواء كان مواطنا أو سياسيا أو مثقفا. وما فيها من وخز للضمير المسلم قد يدفعه إلى يقظة مرتجاة يستعيد من خلالها الأرض والكرامة والوعي في وقت واحد.

لقد عبر مالك بن نبي عن نكبة فلسطين حيناً بالصدمة وحيناً بالكارثة وحيناً بالمشكلة وحيناً بالمأساة؛ وكلها مصطلحات حارة عاطفياً (بن نبي، 1981، صفحة 88). ولكنها تأتي غالباً مقرونة بتطلع إلى أن تكون الصدمة سبب استفاقة ومدعاة إلى مراجعة شاملة للغايات والوسائل؛ وتطعيم الأجيال ضد الأمراض التي سبقت الكارثة وصاحبته وأعقبته.

فمالك بن نبي يلوم السياسيين ويلوم المثقفين ويثني على موقف المتطوعين والفدائيين. يلوم السياسيين على غيابهم عن الحدث حين كان الإنجليز ينسحبون من فلسطين دون تسليمها إلى سلطة تدير شؤونها كما تقضي بذلك كل الأعراف الدولية. ويلومهم على خيانة شعوبهم، بل وتآمرهم على فلسطين رغبة في اقتسامها بعد جلاء الإنجليز يقول في هذا السياق:

(أما إذا انسحب الجيش المحتل، بلا دَف ولا زَف، فهذا يعني أن في القضية لغزا، إذ يبقى السكان في الحقيقة تحت رحمة من له سلاح، ومن باب أولى تحت رحمة من سلحه الجيش المنسحب.) (بن نبي، 1978، صفحة 105)

وينتقد بشدة أولئك السياسيين الذين كان يفترض عليهم -على الأقل- إعلان الجمهورية الفلسطينية بعد جلاء الإنجليز. فقد أعلنت الصهيونية عن قيام دولة إسرائيل واعترفت بها الولايات المتحدة الأمريكية في اليوم نفسه ولم يعلن السياسيون العرب عن أي شيء، بل ألجأهم سذاجتهم حيناً ومصلحتهم حيناً وخوفهم حيناً إلى لغة الخشب ومخادعة شعوبهم والارتقاء في أحضان أوهام الأمم المتحدة التي لم تقدم لقضية فلسطين شيئا.

لقد كان الاستقطاب الذي تشهده العلاقات الدولية وتساعد المد التحرري وتزايد عدد الدول المسلمة التي نالت استقلالها -ولو جزئيا أو شكليا- كل ذلك الجو كان مناسبا لإعلان الجمهورية الفلسطينية وحشد الاعتراف بها. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لقصور فهم وقلة وعي.

سجل مالك بن نبي هذه الآراء كلها في كتبه التي أعقبت النكبة والنكسة على السواء فكان بحق شاهدا واعيا على ما حدث.

إنني أورد هذا الاقتباس الطويل لدلالته العميقة على وضوح رؤية مالك بن نبي

(أما من الناحية السياسية، فقد كانت القيادة العربية تستطيع بعض الشيء. كانت تستطيع مثلا أن تعلن في وجه العالم جمهورية فلسطين، إعلانا يوقف الأشياء عند حدها في موسكو وباريس وواشنطن، أو يكشف عن السرائر ويمزق القناع عن النفاق الذي استطاعت به الدول الكبرى أن تعترف، من دون أن تريق ماء وجهها بإسرائيل باسم ديمقراطية مزعومة. فلو أعلن العرب الجمهورية الفلسطينية لقطعوا السبيل على ذلك النفاق

ولكن يا للويل! كان عبد الله يريد إمبراطورية وفاروق يريد خلافة) (بن نبي، 1978، صفحة 107)

وتلخيصا لما لم يرد في الاقتباس فإن مالكا يرى أن العرب كانوا يعتقدون أنهم قادرون على القضاء على الصهيونية في وقت قصير، ويرون أن المنظمة الدولية الجديدة الأمم المتحدة التي لا تختلف عن الولايات المتحدة في شيء، ستنتصفهم وترد لهم الاعتبار، وكان كل ذلك سرايا سياسيا لا غير. انتقد مالك بن نبي الجامعة العربية بسياسيتها ومثقفيتها وحملها كثيرا من تبعات ما وقع ووصمها بالتقصير والإغراق في الوهم والخطابات، كما وصمها بعدم الرشد حتى في صرف ما يخصص للقضية الفلسطينية من أموال "قال - رحمه الله-: (ومن أبلغ الأمثلة على ذلك ميزانية وفد الجامعة العربية إلى الأمم المتحدة عام 1948 لقد كان هذا الوفد يتصرف فيما يقرب من نصف مليون دولار خلال إقامته بباريس، لم ينفق منها شيئا في نشر أية وثيقة لعرض مسألة فلسطين على الرأي العام العالمي) (بن نبي، 1986، صفحة 91).

وفي المقابل مارس اليهود دعاية كبيرة في ذلك الوقت مستغلين معاداة السامية والمحركة النازية باذلين كل الجهود لإقناع الرأي العام العالمي بعدالة قضيتهم. بينما ظل العرب يخطبون ويجمعون الأموال ويشكلون لجان الإنقاذ التي يتنافس فيها الزعماء على المقاعد الأولى في مواقف مخزية يندى لها الجبين (بن نبي، 1986، صفحة 98).

فقضية فلسطين بالنسبة للعرب والمسلمين ذات أسباب داخلية مرتبطة بوضعنا الحضاري وذات أسباب خارجية مرتبطة بالصراع مع الحضارة الغربية ممثلة في الاستعمار ولواحقه.

أما بالنسبة لليهود فهي كذلك ذات أسباب داخلية تتعلق بمصيرهم الذاتي وذات أسباب خارجية تتعلق بموقف الحضارة الغربية منهم. هذه الحضارة التي وجدت في وعد بلفور حلا مناسباً للتخلص من هذا الشتات غير المتجانس، الذي يمثل أقلية يخشى تأثيرها في كثير من الدول.

اليهود - كما لاحظ مالك بن نبي من الناحية الداخلية كيان متماسك يشد بعضه بعضا يتحرك وفق منطق الفرد للجميع والجميع للفرد. اليهود كانوا يجمعون الأموال في كل بقاع العالم لإنجاز مشروع إسرائيل، وكانوا يبذلون من أوقاتهم وجهودهم ما يجعل حياة المجتمع اليهودي تستمر في أحلك الظروف بما في ذلك ظروف الحرب والتضييق الشديد. لقد رصد مالك بن نبي في هذا الصدد موقفين دالين أولهما يتعلق بالدرس الذي كان علينا كما يرى أن نتعلمه من الفئة اليهودية في الجزائر التي استعادت عافيتها الثقافية والاجتماعية والتربوية والاقتصادية رغم كل أشكال التضييق، فقد ذكر أن (اليهود أثناء الحرب الماضية كانوا يعيشون ساعات شديدة من الاضطهاد، كانت الدوائر الحكومية تحكمهم بقوانين قاسية، تنغص عليهم حياتهم في كل ميدان. كان أبناؤهم يبنذون من دور التعليم، وتجاراتهم تعرقل بمختلف القوانين، وكانوا في هذه الحقبة على وشك أن تصيبهم العوامل التقليدية، التي قللت من قيمتنا نحن المسلمين، غير أنه سرعان ما قام اليهود برد الفعل).

فكنوزت مدرسة سرية في كل بيت من بيوتهم، يدرس فيها أساتذة متطوعون، فيهم المهندسون والطبيب والمحامي) (بن نبي، 1986، الصفحات 153-155)

أما الموقف الثاني فيتعلق دائما بيهود الجزائر وبالكيفية التي كانوا يساهمون بها في مشروع بناء دولة إسرائيل حيث كانوا يدفعون ضرائب يومية منذ 1932. كما أشار مالك بن نبي إلى المبنى الذي كان موجودا في العاصمة الذي كان يستقبل اليهوديات

الوافدات من الصحراء الجزائرية بزي تقليدي ومشية غير رشيقة ومواد تحميل قديمة مستوحاة من البيئة؛ فما هو إلا أسبوع حتى تجدهن قد اكتسبن كل ملامح المجتمع الإسرائيلي الجديد (بن نبي، 1981، صفحة 103)

استفاد مالك بن نبي من كثير من العلاقات والاحتكاك بأفراد الجالية اليهودية في تبسة وقسنطينة وفرنسا في فهم التركيبة النفسية والفكرية للفرد اليهودي، تلك التركيبة التي يصر على إخفائها لولا أنها تظهر في دقيق سلوكياته التي لا يلاحظها إلا من يريد رصدها للبناء عليها، وفي هذا السياق ذكر مالك بن نبي موقف طفل يهودي صغير في فرنسا ابتسم له فلما سأله ابن نبي أخبره الطفل بأن أمه قد علمته أن يبتسم حتى للناس الذين يكرههم. فالأم استخدمت عبارة يكرههم ولم تستخدم مثلاً لا يحبهم أو لا يعجبونه، وفي هذا عميق دلالة على غرس مبدأ كراهية "الأغيار" كما يسموهم في أدبياتهم.

ذكر مالك بن نبي كثيراً من الحقائق عن اليهود المستشفة من تصرفاتهم البسيطة وكلها تؤكد جديتهم ومكرهم وقدرتهم على التكيف وخبرتهم بكل شؤون الحياة. وتؤكد في الوقت ذاته استعدادهم لدعم الاستعمار انطلاقاً من عمالتهم التي أشار إليها المسيري فيما تقدم. هذه العمالة التي سيكون لها الأثر المحمود بعد إقامة الوطن القومي في فلسطين (طرفاوي، 2020).

إذن للمستوطن أسبابه ولصاحب الأرض أسبابه وقد حصد كل منهما نتائج يمكن أن نورد منها نتيجتين محورتين من باب التمثيل لا الحصر:

إن قضية فلسطين بالنسبة للصهاينة تحقيق لحلم كثيراً ما راودهم في بناء وطن قومي مصطنع يجمع ما أمكن من شتاتهم ويحل ما استطاع من إخفاقاتهم في الاندماج الكلي في المجتمعات الغربية فقد ذكر المسيري نقلاً عن أحد مهندسي الحركة الصهيونية: (إننا عندما نتكلم عن إقامة مستعمرات في الشرق لا نعني أن يهاجر يهود الغرب كلهم إلى فلسطين فالدولة اليهودية لا تهدف إلى استيعابهم كلهم، وإنما تهدف إلى استيعاب الفائض، أولئك الذين فشلوا في أن يشقوا طريقهم إلى الحضارة الغربية بجهد بالغ ويحققوا لأنفسهم مركزاً اجتماعياً أما الذين نجحوا في هذه العملية فلن يتخلوا عن أي نجاح حققوه) (المسيري، 2003، صفحة 35).

أما بالنسبة للعرب والمسلمين فمأساة فلسطين نتيجة طبيعية لحالة التخلف والقابلية للاستعمار والاستضعاف، تلك القابلية التي غيبت المسلم عن معتزك المدافعة والمداولة الحضارية بتعبير الدكتور الطيب برغوث.

لكن هذه النتيجة لا ينبغي أن تدفع إلى اليأس والاستكانة والتسليم للأمر الواقع باسم الواقعية كما فعل العرب زمن النكبة والنكسة إنما ينبغي فهمها فهما سننيا شموليا يحيلها من هزيمة إلى منبه. ومن حالة هوان إلى حالة شعور بعزة ينبغي استعادتها، وهو الأمر الذي تمناه مالك بن نبي إذ اعتبر نكبة فلسطين "أخطر حدث، بل أعظم الأحداث بركة في تاريخ العالم الإسلامي الحديث" حيث قضت على كل أشكال الفوضى المعيقة للنهضة الإسلامية وكشفت كل الأوهام التي تكبل العقل المسلم، ونفضت الغبار عن الضمير المسلم فأخذ يلتفت إلى واقعه المرير الذي سبب النكبة عساه يعالجه بجدية ووعي بدل معالجته بأوهام الأمم المتحدة وحقوق الإنسان والمحافل الدولية التي كثيراً ما أدانت شعب فلسطين بدل إنصافه.

إن مالك بن نبي يضرب لنا مثالا في غاية الأهمية عن استفادة الضمير والعقل المسلم بعد نكبة فلسطين، إنه يورد في كتابه وجهة العالم الإسلامي الجزء الأول كلاماً طويلاً نسبياً لأحد المثقفين السوريين وهو ناظم القدسي. زبدة هذا الكلام أن انتصار إسرائيل لم يكن عسكرياً فقط، بل كان سياسياً واقتصادياً. ولكي نتجاوز هذه الهزيمة. حسب ناظم القدسي. علينا إعادة النظر في كل شيء

من التفكير إلى مستوى الحياة المعيشية الفردية البسيطة، ومن دجل السياسيين المتمثل في توقيع الاتفاقيات بين دولنا وعقد المؤتمرات إلى إزالة الاستبداد من واقع شعوبنا حتى تلبي نداء التضحية والنضال حين يوجه إليها (بن نبي، 1986، صفحة 145) ولعل ما يزيد رؤية ابن نبي صدقية أن مفكرا مختصا في اليهودية والصهيونية هو الأستاذ المسيري ينطق بنفس اللسان في سنة 2000 في كتابه الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية: دراسة في الإدراك والكرامة فيقول: (ويجب ألا نُهوّن من قدر العدو وقدر أنفسنا والا نُهوّل منهما، بل نرصده ونرصد أنفسنا داخلنا بكل ما نضم من قوى ايجابية وسلبية مادية وروحية حقيقية وكامنة، ونحن لو فعلنا ذلك نكون قد نزعنا عن الاسرائيلي أية هالات ميتافيزيقية يكون قد خلعها على نفسه والعظمة في نهاية الامر لله وحده ودون أن ننكر قوته الذاتية الحقيقية. ونكون ايضا قد استعدنا للإنسان العربي امكانيات الحركة الكامنة داخله وأدركنا ان ما قد علانا من غبار الهزيمة يمكن ان ننفضه وأن ننتقل لنعلي كلمة الحق والفضيلة في زمن الكذابين والصحفيين المأجورين والاعلام المصقول وأدوات القمع) (المسيري، 2000، صفحة 21)

ليس هذا رأي مالك بن نبي والمسيري وحدهما إنما رأي المؤسسة الاستعمارية التي نطق أحد ممثليها مخاطبا مالك بن نبي حين كان يعلم الأميين في مارسيليا: (أنت تدرك أنه منذ أن بدأ سكان شمال إفريقيا يتعلمون ومنذ بروز (قضايا) فلسطين، لم يعد بالمقدور قيادتهم وحكمهم) (بن نبي، 2007، صفحة 169).

هكذا أدرك الاستعمار ما يمكن أن تفعله قضية فلسطين من هز للوجدان المسلم تعقبه حتما المقاومة والثورة التحريرية والانتفاضة والطوفان الأخير..

إن تصفية الاستعمار الصهيوني لفلسطين مرهون حسب مالك بن نبي بتصفيته من شعور المسلم ووجدانه وعقله. ومرهون بمدى قدرته على استعادة دوره كشاهد على الناس. ولن تتأتى هذه الاستعادة ما لم يتخلص المسلم من "الشيئية والذرية" اللتين توجهان فكره، ومن "الفوضى والافعالية" اللتين توجهان حركته، ومن الذهانين "ذهان السهولة وذهان الاستحالة" الذين يحكمان منطقته في النظر إلى قضية فلسطين ومثيلاهما من قضايا الاستعمار الجديد كالعراق وأفغانستان وغيرها.

إن قضية فلسطين من منظور مالك بن نبي تحل ضمن منطق استرجاع الأرض المحتلة باعتبار "التراب" عنصرا من عناصر الحضارة ولن يتم هذا الاسترجاع ما لم يستعد الإنسان العربي ثقته بنفسه فيستثمر "الوقت" ويوجه "العمل" و "رأس المال" ضمن النسق الثقافي الذي يمليه الإسلام "كفكرة دينية".

خاتمة:

لقد حاولت في هذا المقال استقراء بعض ما كتب مالك بن نبي مما يمس القضية الفلسطينية بشكل مباشر أو غير مباشر، فاقتصر على ما رأيته أنه يمثل رؤيته للموضوع متجاوزا بعض التفاصيل والمواقف الجزئية الظرفية التي أشار فيها إلى الثورة الفلسطينية وبعض اختلالاتها. رغم أن ابن نبي ألمح إليها وإلى تعدد رؤوسها وصعوبة الحكم عليها في ذلك الوقت.

إنني أرد هذا التجاوز إلى الهدف الرئيس لهذا المقال الذي هو بيان تصور مالك بن نبي للمسألة الفلسطينية من حيث كونها جزءا من مشكلة حضارية معقدة.

إنني أعتقد جازما أن ثمة نصوصا كثيرة ربما أغفلها هذا المقال الذي يأتي في لحظة فارقة من تاريخ القضية الفلسطينية، ولكن عزائي في ذلك أنني أثرت الموضوع وفتحت أفق بحث فيه.

إن اللحظة التي أختتم فيها هذا المقال تتسم بكون الشهداء يرتقون كل يوم معارج البطولة وأن المجاهدين يضربون المثل في التضحية والثبات، فلعل هذا المقال يكون بعض وفاء لهؤلاء إذ يحيل على منطق رصين اتسم به فكر مالك بن نبي رحمه الله يمكن للمقاومة اليوم أن تستفيد منه في رص صفوفها وتجاوز ما خلفته القابلية للاستعمار والنظرة الظرفية والفكر التجزيئي من أدواء تشتت الجهد وتعرضه للاهتلاك الذاتي، الأمر الذي تستغله مخابر الصراع الفكري فتنفخ فيه فإذا الهدف النبيل للمقاومة يتحول إلى وسيلة تفرقة صف وتشتيت جهد.

إن مالك بن نبي في تناوله للقضية الفلسطينية هو الإنسان والمفكر والمناضل لذا فحري بنا أن نقرأ كتاباته حولها ونطورها ونستغلها في خدمة هذه القضية المركزية في حياة كل مسلم.

قائمة المراجع:

- أحمد طرفاوي. (2020). اليهود والغرب في أدبيات مالك بن نبي. جسر المعرفة، 6(1)، الصفحات 621-635. تاريخ الاسترداد mercredi 28 février, 2024 من
- عبد الوهاب المسيري. (2000). الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية : دراسة في الإدراك والكرامة (الإصدار 1). القاهرة، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- عبد الوهاب المسيري. (2003). الصهيونية والحضارة الغربية (الإصدار 1). القاهرة، مصر: دار الهلال.
- مالك بن نبي . (2001). فكرة الإفريقية الآسيوية: في ضوء مؤتمر باندونغ (الإصدار 3). (ندوة مالك بن نبي، المحرر، و عبد الصبور شاهين، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الفكر المعاصر.
- مالك بن نبي. (1978). بين الرشاد والتهيه (الإصدار 1). (ندوة مالك بن نبي، المحرر) دمشق، سوريا: دار الفكر.
- مالك بن نبي. (1979). تأملات (الإصدار 1). (ندوة مالك بن نبي، المحرر) دمشق، سوريا: دار الفكر.
- مالك بن نبي. (1981). في مهبط المعركة (الإصدار 3). بيروت، لبنان: دار الفكر المعاصر.
- مالك بن نبي. (1984). مذكرات شاهد للقرن (الإصدار 2). (ندوة مالك بن نبي، المحرر) بيروت، لبنان : دار الفكر المعاصر.
- مالك بن نبي. (1986). شروط النهضة. (عبد الصبور شاهين، المترجمون) دمشق، سوريا: دار الفكر.
- مالك بن نبي. (1986). وجهة العالم الإسلامي (الإصدار 1، المجلد 1). بيروت، لبنان: دار الفكر المعاصر.
- مالك بن نبي. (1988). مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي (الإصدار 1). بيروت، لبنان: دار الفكر المعاصر.
- مالك بن نبي. (2007). العفن (الإصدار 1، المجلد 1). (نور الدين خندودي، المترجمون) الجزائر، الجزائر: دار الأمة.
- مالك بن نبي. (2012). وجهة العالم الإسلامي : المسألة اليهودية (الإصدار 1، المجلد 2). دمشق، سوريا: دار الفكر.

References

- Aḥmad ṭrfāwy. (2020). al-Yahūd wa-al-Gharb fī Adabīyāt Mālik ibn Nabī. Jusūr al-Maʿrifah
- Abd al-Wahhāb al-Misrī. (2000). al-Intifāḍah al-Filasṭīnīyah wa-al-azmah al-Šīhyūnīyah : dirāsah fī al-idrāk wa-al-karāmah (al-iṣḍār 1). al-Qāhirah, Miṣr : al-Hayʾah al-Miṣrīyah al-ʿĀmmah lil-Kitāb.
- Mālik ibn Nabī. (2001). fikrat al-Ifrīqīyah allʿāsywyh : fī ḍawʾ Muʾtamar bāndwng (al-iṣḍār 3).
- Mālik ibn Nabī. (1978). bayna al-Rashād wāltiyh (al-iṣḍār 1). (Nadwat Mālik ibn Nabī, al-muḥarrir) Dimashq, Sūriyā : Dār al-Fikr.
- Mālik ibn Nabī. (1979). Taʾammulāt (al-iṣḍār 1). (Nadwat Mālik ibn Nabī, al-muḥarrir) Dimashq, Sūriyā : Dār al-Fikr.
- Mālik ibn Nabī. (1981). fī mahabb al-maʿrakah (al-iṣḍār 3). Bayrūt, Lubnān : Dār al-Fikr al-muʿāṣir.

Mālik ibn Nabī. (1984). Mudhakkirāt shāhid lil-qarn (al-iṣḍār 2). (Nadwat Mālik ibn Nabī, al-muḥarrir) Bayrūt, Lubnān : Dār al-Fikr al-mu‘āṣir.

Mālik ibn Nabī. (1986). shurūṭ al-Nahḍah. (‘Abd al-Ṣabūr Shāhīn, al-Mutarjimūn) Dimashq, Sūriyā : Dār al-Fikr.

Mālik ibn Nabī. (1986). wijhat al-‘ālam al-Islāmī (al-iṣḍār 1, al-mujallad 1). Bayrūt, Lubnān : Dār al-Fikr al-mu‘āṣir.

Mālik ibn Nabī. (1988). Mushkilat al-afkār fī al-‘ālam al-Islāmī (al-iṣḍār 1). Bayrūt, Lubnān : Dār al-Fikr al-mu‘āṣir.

Mālik ibn Nabī. (2007). al-‘Afan (al-iṣḍār 1, al-mujallad 1). (Nūr al-Dīn khndwdy, al-Mutarjimūn) al-Jazā’ir, al-Jazā’ir : Dār al-ummah.

Mālik ibn Nabī. (2012). wijhat al-‘ālam al-Islāmī : al-Mas’alah al-Yahūdīyah (al-iṣḍār 1, al-mujallad 2). Dimashq, Sūriyā : Dār al-Fikr.